جمالية

أسرار قرآنية

عدنان بن عبد القادر

الطبعة الثانية

١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ م

دار حامل المسك للنشر والتوزيع

الكويت – الشامية قطعة ٨ – شارع ٨٨ منزل ٥

هاتف: ٢٤٩٢٦٣٢٠ – النقال: ٦٦٨٩٠٠٧٨ – فاكس: ٢٤٩٢٦٣٢٢

ص.ب ١٢٣٢٦ الشامية – الرمز البريدي ٧١٦٥٣

Website:www.hamel-almisk.com

E-mail.:info@ hamel-almisk.com

المقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

أما بعد،،،

فإني كلما قرأت قصة إسلام أحد أصحاب النبي ﷺ أقول في نفسي: لقد كان هذا الصحابي عظيماً إذ كان منصفاً، فيزداد المرء حباً للانتماء لهذا الدين والاستظلال بمظلته، والتمسك به، ولكن من يقرأ تاريخ العرب ويعرف تعصبهم لدينهم وحبهم لآبائهم وحميتهم لقبائلهم يتوقف متسائلاً متعجباً: كيف يفارق هؤلاء العظماء دين الآباء عند سماعهم بعض آيات القرآن من النبي ﷺ أو من بعض الصحابة الكرام، فراقاً غير وامق؟

هذا العربي الذي يأنف من أن تُمس شعرة من شعرات أبيه أو أمه كحادثة عمرو بن هند مع عمرو بن كلثوم، إذ قال ذات يوم عمرو بن هند – ملك العرب– لندمائه: «هل تعلمون أحداً من العرب تأنف أمه من خدمة أمي؟ فقالوا: نعم! أم عمرو بن كلثوم. قال: ولم؟ قالوا: لأن أباها مهلهل بن ربيعة، وعمها كليب وائل أعز العرب، وبعلها كلثوم بن مالك أفرس العرب، وابنها عمرو، وهو سيد قومه فأرسل عمرو بن هند إلى عمر بن كلثوم يستزيره، ويسأله أن يُزير أمّه أمّه. فأقبل عمرو من الجزيرة إلى الحيرة في جماعة بني تغلب، وأقبلت ليلى بنت مهلهل في ظُعُن من بني تغلب. وأمر عمرو بن هند خيمته، فضربت فيما بين الحيرة والفُرات، وأرسل إلى وجوه أهل مملكته، فحضروا في وجوه بني تغلب. فدخل عمرو بن كلثوم على عمرو بن هند في خيمته، ودخلت ليلى وهند

في قبّة من جانب الخيمة، وكانت هند عمة امرئ القيس بن حُجر الشاعر، وكانت أم ليلى بنت مهلهل بنت أخي فاطمة بنت ربيعة التي هي أم امرئ القيس، وبينهما هذا النسب. وقد كان عمرو بن هند أمر أمّه أن تنحّي الخدم إذا دعا بالثمار النادرة وتستخدم ليلى، فدعا عمرو بمائدة، ثم دعا بالثمار فقالت هند: ناوليني يا ليلى ذلك الطبق، فقالت ليلى: لتَقُم صاحبة الحاجة إلى حاجتها، فأعادت عليها، وألحت، فصاحت ليلى: وا ذلاهّ يا لتغلبّ فسمعها عمرو بن كلثوم، فثار الدم في وجهه، ونظر إليه عمرو بن هند، فعرف الشر في وجهه، فوثب عمرو بن كلثوم إلى سيف لعمرو بن هند معلق بالخيمة ليس هناك سيف غيره، فضرب به رأس عمرو بن هند، ونادى في بني تغلب، فنهبوا ما في الخيمة، وساقوا نجائبه، وساروا نحو الجزيرة».

فقال:

أبا هند فلا تعجل علينا ... وأنظرنا نخبرك اليقينا
بأنا نورد الرايات بيضاً ... ونصدرهن حمراً قد روينا
وأيام لنا غرّ طوال ... عصينا الملك فيها أن ندينا
وسيد معشر قد توجوه ... بتاج الملك يحمي المحجرينا
تركنا الخيل عاكفة عليه ... مقلدة أعنتها صفونا

بالرغم من ذلك عندما أرسل النبي ﷺ مصعب بن عمير إلى المدينة ليدعو إلى الله تعالى وينشر الإسلام فيها، ضاق سعد بن معاذ وأسيد بن حضير، وكانا سيدي بن عبد الأشهل، ضائقاً ذرعاً به وذلك قبل إسلامهما، فانطلق أسيد إلى مصعب يتهدده فأشرق وجه أسيد وتهلل ثم أسلم، ثم انطلق إليه سعد بن معاذ يتوعده كذلك ويتهدده، وبعدما قضى كلامه، قرأ عليه مصعب شيئاً من القرآن فأسلم في الحال.

هذا سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أبرّ قريش بأمه سمع من القرآن فأسلم، فأقسمت أمه أن لا تذوق طعاماً حتى يكفر. فقالت له: يا سعد، ما هذا الذي أراك قد أحدثت؟ لتدعن دينك هذا أو لا آكل، ولا أشرب حتى أموت فتعير بي فيقال: يا قاتل أمه، فلم تتحرك شعرة منه نحو الكفر فرد عليها: «لا تفعلي يا أُماه، والله لو كانت لك مائة نفس فخرجت نفساً نفساً، ما تركت ديني هذا لشيء، فإن شئت فكلي وإن شئت لا تأكلي» (رواه طب العشرة- أسد الغابة/ ابن كثير ٦/٣٤٠)

وأعظم من ذلك أبو عبيدة عامر بن الجراح كان رجلاً رقيقاً، ذا قلب رحيم، باراً بأبيه، أسلم على يد أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عندما قرأ عليه شيئاً من القرآن، هاجر مع النبي ﷺ وتجهزت قريش لقتاله في بدر، فخرج أبو عبيدة في جيش النبي ﷺ وخرج أبوه في صفوف الكفار.

انطلق أبو عبيدة يوم بدر يصول بين الصفوف صولة من لا يهاب الردى، فهابه المشركون، ويجول جولة من لا يحذر الموت، فحذره فرسان قريش وجعلوا يتنحون عنه كلما واجهوه.

لكن رجلاً واحداً منهم جعل يبرز لأبي عبيدة في كل اتجاه، فكان أبو عبيدة ينحرف عن طريقه ويتحاشى لقاءه.

ولج الرجل في الهجوم، وأكثر أبو عبيدة من التنحي، وسد الرجل على أبي عبيدة المسالك، ووقف حائلاً بينه وبين قتال أعداء الله.

فلما ضاق به ذرعاً ضرب رأسه بالسيف ضربة فلقت هامته فلقتين، فخر الرجل صريعاً بين يديه.

لا تحاول -أيها القارئ الكريم- أن تخمن من يكون الرجل الصريع.

ولقد يتصدع رأسك إذا عرفت أن الرجل الصريع هو عبدالله بن الجراح والد أبي عبيدة.

يقف المرء مذهولاً حائراً من أولئك العظماء، كيف تغيرت أحوالهم تماماً واجتثت الحمية الجاهلية والعصبية للآباء والعشيرة بعد سماعهم شيئاً من كتاب الله تعالى.

بل يزداد المرء تعجباً من عظماء قريش وأسيادهم كيف يأخذ القرآن بعقولهم حتى لا يملك أحدهم من نفسه إلا أن يستمع إلى كلام الله تعالى حينما يقرأ بحضوره بالرغم من معارضته له وكفره به والتشنيع على من يستمع إليه، بل ويتعنى من أجل أن يستمع إليه ويخرج من بيته ليلاً متسللاً إليه لئلا يطلع عليه أحد من سادة قريش فيعيره بذلك.

روى ابن إسحاق أن أبا سفيان بن حرب وأبا جهل بن هشام والأخنس بن شريق، خرجوا ذات ليلة ليستمعوا من رسول الله ﷺ وهو يصلي من الليل في بيته، فأخذ كل رجل منهم مجلساً يستمع فيه وكل لا يعلم بمكان صاحبه فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا، فجمعهم الطريق، فتلاوموا، وقال بعضهم لبعض: لا تعودوا، فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم في نفسه شيئاً، ثم انصرفوا، حتى إذا كانت الليلة الثانية عاد كل رجل منهم إلى مجلسه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعهم الطريق، فقال بعضهم لبعض مثل ما قالوا أول مرة، ثم انصرفوا، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا، فجمعهم الطريق، فقال بعضهم لبعض: لا نبرح حتى نتعاهد ألا نعود، فتعاهدوا على ذلك ثم تفرقوا.

فلما أصبح الأخنس بن شريق أخذ عصاه ثم خرج حتى أتى أبا جهل في بيته، فقال له أخبرني يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد، فقال: ماذا سمعت؟! تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف: أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تحاذينا على الركب وكنا كفرسي رهان،

قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء، فمتى ندرك مثل هذه؟ والله لا نؤمن به أبداً، ولا نصدقه. فقام عندها الأخنس وتركه.

فما هو ذلك الذي في كتاب الله تعالى والذي أخذ بألبابهم وأسر قلوبهم فكانت نقطة تحول في حياتهم للمفاصلة والبراءة يقاتل عليه ويعيش عليه؟ وذلك هو بلاغة كتاب الله تعالى

وهذا الذي صرح به أحد عظماء قريش وهو الوليد بن المغيرة.

ذات يوم جاء الوليد بن المغيرة إلى رسول الله ﷺ فقرأ عليه القرآن، فكأنه رقّ له، فبلغ ذلك أبا جهل، فأتاه فقال: يا عم إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالاً، قال: لم؟ قال: ليعطوكه، فإنك أتيت محمداً لتعرض ما قِبَلَه! قال: قد علمت قريش أني من أكثرها مالاً، قال: فقل فيه قولاً يبلغ قومك أنك منكر له، قال: وماذا أقول؟ فوالله ما منكم رجل أعرف بالأشعار مني، ولا أعلم برجزه ولا بقصيده مني، ولا بأشعار الجن، والله ما يشبه الذي يقول شيئاً من هذا، ووالله إن لقوله الذي يقوله حلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه، مغدق أسفله، وإنه ليعلوا ولا يعلى، وإنه ليحطم ما تحته، قال: لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه، قال قف عني حتى أفكر فيه، فلما فكر قال: إن هذا إلا سحر يؤثر، يأثره عن غيره، فنزلت ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ ﴾ (المدثر: ١١-١٣).

بل ولا يملك المرء إلا أن يخر ساجداً لله تعالى لجلالته وجلالة كلامه عندما يقرأ قصة النبي ﷺ عند الكعبة -في العهد المكي بعد حادثة الإسراء والمعراج- عندما كان ﷺ يصلي عند الكعبة وخلفه مجموعة قليلة من أصحابه المؤمنين الضعفاء، فابتدأ بسورة النجم ﴿ وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴾ وجهر بها، وسادة قريش في نواديهم ومجالسهم حول الكعبة.

فأخذوا يستمعون للنبي ﷺ وهو يقرأ. وهو ﷺ يذكر آلهتهم ذكراً قبيحاً
﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾
تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن
سُلْطَٰنٍ﴾ إلى أن قال النبي ﷺ متوعداً إياهم ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَاْ
فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُواْ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾
فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴿٥٦﴾﴾ وما
زالوا يستمعون، بل زادهم شوقاً وخوفاً ورهبة، واستمر ﷺ يقرأ ﴿أَزِفَتِ ٱلْآزِفَةُ
﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾ أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ
﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ﴿٦١﴾ فَٱسْجُدُواْ لِلَّهِ وَٱعْبُدُواْ ۩ ﴿٦٢﴾﴾

فخر النبي ﷺ ساجداً، فسجد الصحابة خلفه، فقامت قريش كلها بساداتها وعظمائها فسجدوا لله تعالى إجلالاً للكلام وتعظيماً له، فلم يملكوا من أنفسهم شيئاً، إلا رجلاً واحداً، أنف من السجود له، ولكنه لم يتمالك، فلسان حاله يقول، إذا أنف الجسد من السجود له، فلأذلن الجبهة لهذا الكلام العظيم، فأخذ حفنة من التراب وجعلها على جبهته تعظيماً وإجلالاً له.

من أجل ذلك أحببت أن أجمع شيئاً من تلك البلاغات في سلسلة من الرسائل الصغيرة بصياغة سهلة ميسرة ليطلع المرء على عظمة كلام الله تعالى وجلاله.

عدنان عبد القادر

١ صفر ١٤٢١ هـ

الضمة بين حزن يعقوب وكرم الخليل

«حدث النضرُ بن شُمَيِّل، فقال: كنت أدخل على المأمون في سمره، فدخلت عليه ذات ليلة وعليّ قميص مرقوع، فقال: يا نضر، ما هذا التقشف حتى تدخل على أمير المؤمنين في هذه الخُلقان؟ قلت: يا أمير المؤمنين، أنا شيخ ضعيف، وحر مرو شديد، فأتبرد بهذه الخلقان، ثم أجرينا الحديث -فأجرى هو ذكر النساء، فقال: حدثنا هشيم أن رسول الله ﷺ قال: «إذا تزوج الرجل المرأة لدينها وجمالها كان فيها سَداد من عوز» فأورده بفتح السين، قال: فقلت: صدق يا أمير المؤمنين هشيم، حدثنا عوف بن أبي جميلة أن رسول الله ﷺ قال: «إذا تزوج الرجل المرأة لدينها وجمالها كان فيها سِداد من عوز» -قال: وكان المأمون متكئاً فاستوى جالساً، وقال: يا نضر، كيف قلت (سَداد) قلت: (السَداد) ها هنا لحن.

قال: أو تلحنني! قلت: إنما لحن هُشَيم -وكان محدثاً لحّانة- فتتبع أمير المؤمنين لفظه.

قال فما الفرق بينهما؟

قلت: السَّداد -بفتح السين- القصد في الدين والسبيل، والسِّداد -بالكسر- البُلْغَة وكل ما سددت به شيئاً فهو سِداد. قال: أو تعرف ذلك العرب؟ قلت: نعم هذا العرجي يقول:

أضاعوني وأي فتى أضاعوا ... ليوم كريهة وسِـــدادِ ثغر

فقال المأمون: قبح الله من لا أدب له، وأطرق ملياً، ثم قال له: ما مالك يا نضر، فقال: أريضة لي بمرو أتصابُّها وأتمزّزُها أي أشرب صباباتها وأمصها- قال: أفلا نفيدك مالاً معها؟، قلت: إني إلى ذلك لمحتاج.

قال: «فأخذ القرطاس وأنا لا أدري ما يكتب، ثم صلى بنا العشاء، وقال لخادمه:

تبلغ معه إلى الفضل بن سهل، فلما قرأ الفضل الكتاب، قال يا نضر، أمير المؤمنين أمر لك بخمسين ألف درهم، فما كان السبب فيه؟ فأخبرته ولم أكذبه. فأمر لي الفضل من خاصته بثلاثين ألف درهم فأخذت ثمانين ألف درهم بحرف استفيد مني».

لقد كانت العرب تلحظ هذه الفروق سواء في التشكيل أو في زيادة الحروف ونقصانها أو في الكلمات وتبحث عن دلالتها البلاغية، وإلا أصبحت زيادات لا أثر لها بل هي إلى الثرثرة والتشدق أقرب منها إلى الفصاحة والبيان.

كتاب الله تعالى مليء بهذه الفروق البلاغية، بل «كأن البلاغة فيه إنما هي وجه من نظم حروفه... فالحرف الواحد من القرآن معجز في موضعه، لأنه يمسك الكلمة التي هي فيها ليمسك بها الآية والآيات الكثيرة».

لذا فإني أحببت أن أشير إلى بعض منها تذكرة للعالم، وتنبيهاً للغافل.

■ الحُزْن والحَزَن

الحُزْن والحَزَن أصلهما واحد، ومادتهما واحدة، والمعنى متقارب، إذ المعنى هو الشعور بالضيق الذي يصيب الإنسان لما فاته من الخير أو ما لحقه من الشر.

لكن الحُزن –بضم الحاء– يدل على الضيق الشديد، قال الله تعالى عن يعقوب عليه السلام عندما بلغه خبر فقدان بنيامين –الابن الثاني– واتهام إخوته له بالسرقة فأصبح عبداً لعزيز مصر قال: ﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ ﴾.

فبلغ الأسف والضيق منه مبلغاً شديداً، إذ تذكر في هذه اللحظة قرة عينه يوسف عليه السلام الذي فقده صغيراً، ثم الابن الثاني من المرتبة، فبكى بكاءً مراً أفقده بصره.

أما الحَزَن –بفتح الحاء– فيدل على حزن أخف، بل لا ضيق فيه. لذا إذا دخل أهل الجنة الجنة، وتنعموا فيها أخذوا يتندرون بما أصابهم في الدنيا من ضيق وألم وخوف، ولكن الحديث ما هو إلا ذكريات مضت، يتسامر فيها الخلان، قال الله تعالى عن أهل الجنة ﴿وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ فأهل الجنة هؤلاء منهم يعقوب عليه السلام الذي أخبر عنه المولى تعالى أنه ابيضت عيناه من الحُزن، أي أصابه الحُزن، ولكنه إذا دخل الجنة لا يذكر الحُزن، وإنما يذكر الحَزَن.

■ سلاماً وسلامٌ

قال الله تعالى: ﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ (الذاريات: ٢٤-٢٥).

قال ابن القيم قوله ﴿سَلَٰمٌ﴾ بالرفع، وهم سلموا عليه بالنصب ﴿سَلَٰمًا ﴾، والسلام بالرفع أكمل. أهـ.

وذلك لما يلي:

أ- الرفع يدل على الجملة الإسمية بينما النصب يدل على الجملة الفعلية ، قال ابن القيم: «والسلام بالرفع أكمل فإنه يدل على الجملة الإسمية الدالة على الثبوت والتجدد، والمنصوب يدل على الفعلية الدالة على الحدوث والتجدد. فإبراهيم حياهم بتحية أحسن من تحيتهم فإن قولهم ﴿سَلَٰمًا ﴾ يدل على (سلمنا سلاماً) وقوله ﴿سَلَٰمٌ﴾ أي سلام عليكم». أهـ.

ب-توجيه آخر لعلماء اللغة:

قال ابن القيم: «إنهم في الغالب يجعلون الضمة التي هي أقوى الحركات للمعنى الأقوى والفتحة خفيفة للمعنى الخفيف، -والكسرة- المتوسطة للمتوسط». أهـ.

وقال «يقولون: يَعَزُّ -بفتح العين- إذا صَلُبَ.

يَعِزُّ بكسر العين إذا امتنع. والممتنع فوق الصلب، فقد يكون الشيء صلباً ولا يمتنع على كاسره.

يُعُزُّ -بضم العين- إذا غَلَبَ

والغلبة أقوى من الامتناع، إذاً قد يكون الشيء ممتنعاً في نفسه، متحصناً عن عدوه، ولا يغلب غيره، فالغالب أقوى من الممتنع، فأعطوا الغالب أقوى الحركات -وهو الضمة- والصلب أضعف من الممتنع، فأعطوه أضعف الحركات -وهو الفتحة-، والممتنع المتوسط بين المرتبتين فأعطوه حركة الوسط». أهـ.

وطرح عالم اللغة ابن جنيّ سؤالاً: لم صار الفاعل مرفوعاً؟ قال: لإسناد الفعل إليه.

وقال: «إن صاحب الفعل أقوى الأسماء، والضمة أقوى الحركات فجعل الأقوى للأقوى». أهـ.

المراجع:

(١) جلاء الأفهام (١٥٧).

(٢) جلاء الأفهام (٧٦).

(٣) الخصائص (١/١٧٣).

الكسرة بين شوق النبي ﷺ وهوان الكفار

قال الأمير الصنعاني يثني على الشيخ محمد بن عبد الوهاب في قصيدة طويلة مطلعها:

سَلام إلى نجد ومن حل في نجد وإن كان تسليمي من البعد لا يجدي

(سَلام) بفتح السين.

فرد عليه أحد خصوم دعوة الشيخ فقال:

سِلام بكسر السين لا فتحها نهدي لمن حل في صنعا من حل في نجد

والسِّلام بكسر السين هي الحجارة الصلبة.

فانتصر الشيخ تقي الدين الهلالي للشيخ محمد بن عبد الوهاب فقال:

سِلام بكسر السين في صعقة الرعد إلى عابد الأوثان في السهل والنجد

لقد كانت العرب تتذوق هذا التغيير في الحركات، بل ربما يخر أحدهم ساجداً إذا ما لحظ ذلك وعلم أنها إشارة بليغة وأدرك من ورائها فهماً دقيقاً.

■ مِت ومُت

(مِت) و(مُت) يدلان على تحقق الموت، ولكن (مُت) بضم الميم تدل على عِظم الموت المتحقق إما للمتكلم أو لمن أصابه الموت.

قال تعالى عن المؤمنين أصحاب النبي ﷺ عندما أصابتهم الجراحات وتحول النصر إلى هزيمة، وموت بعض آبائهم وإخوانهم وأبنائهم في غزوة أحد: ﴿وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ فذكرها الله تعالى بضم الميم (مُتّم)،

وذلك لما يلي:

أ- إن ما حصل للصحابة كان أمراً عظيماً، وهو تحول النصر إلى هزيمة، وموت غير متوقع بحضور النبي ﷺ معهم، لأن النصر قد حالفهم قبله، فبدلاً من أن يتبادلوا التهاني على النصر إذا بهم يعزون بعضهم على موت الآباء والأبناء.

ب- موت المؤمن عزيز على الله تعالى، إذ المؤمن يكره الموت، والله تعالى يكره ما يكرهه المؤمن. قال الله تعالى في الحديث القدسي: «وما ترددت في شيء ترددي في قبض روح عبدي المؤمن، يكره الموت وأنا أكره مساءته» رواه البخاري. فلما كان موت المؤمن عظيماً في حقه، أصبح عظيماً عند الله تعالى، فاستحق التعظيم، فقال تعالى فيهم ﴿ مُتُّمْ ﴾ بضم الميم.

أما (مت) فتدل على هوان الموت إما في حق المتكلم أو الميت. فقد قالها الله تعالى في حق كل مما يلي:

١- الكفار: ﴿ وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴾. وكذلك في قوله تعالى: ﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ﴾.

ذلك لأن الكافر، وإن كان يشعر بأن الموت في حقه أمر شديد عظيم، لكنه هين على الله تعالى. بل لا وزن له عنده ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴾ فاستحق كسر الميم التي تدل على أن الموت هين عند المتكلم.

٢- مريم: قال الله تعالى عنها عندما بُشرت بعيسى عليه السلام بلا أب وفُجعت بالخبر، فاستغاثت بربها قالت: ﴿ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴾ فعندما جاءها المخاض لولادة عيسى عليه السلام تمنت الموت، فأصبح الموت عندها أهون من كل شيء، فأخذت تنادي وترجو الموت

فقالت: ﴿يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا﴾.

ج- النبي ﷺ:

قال تعالى ﴿وَمَا جَعَلۡنَا لِبَشَرٖ مِّن قَبۡلِكَ ٱلۡخُلۡدَۖ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلۡخَٰلِدُونَ﴾؟! هل كان النبي ﷺ يكره الموت فيكره الله تعالى مساءته؟ أم أن النبي ﷺ هو الذي اختاره؟ لقد تهيأ النبي ﷺ للقاء الله تعالى، ففي مرض موته ﷺ قالت عائشة: «دخل عليّ عبد الرحمن -أخوها- وبيده السواك، وأنا مسندة رسول الله ﷺ فرأيته ينظر إليه، وعرفت أنه يحب السواك، فقلت آخذه لك؟ فأشار برأسه أن نعم فاستن كأحسن ما كان مستناً» رواه البخاري.

وقالت عائشة مبينة أنه ﷺ هان عليه الموت، بل اختاره ﷺ: «كان النبي ﷺ يقول وهو صحيح: أنه لم يقبض نبي حتى يرى مقعده من الجنة، ثم يخير، فلما نزل به، ورأسه على فخذي غشي عليه، ثم أفاق فأشخص بصره إلى سقف البيت، ثم قال: اللهم الرفيق الأعلى، فقلت: إذاً لا يختارنا، وعرفت أنه الحديث الذي كان يحدثنا وهو صحيح، قالت: فكان آخر كلمة تكلم بها: اللهم الرفيق الأعلى» رواه البخاري.

أسرار جمالية قرآنية

نقصان الحرف بين عفاف مريم وعجز يأجوج

■ اسطاع واستطاع

الزيادة في الأحرف تعني زيادة في المعنى، والنقصان فيها يدل على نقصان في المعنى، كما قيل: الزيادة في المبنى تقتضي الزيادة في المعنى.

كلمه استطاع تدل على القدرة الكاملة، ونفيها (لم يستطع) يدل على عدم وجود كمال القدرة، ولكنها قد توجد بصورة ناقصة، وقد لا توجد.

أما كلمة اسطاع فتدل على وجود قدرة ناقصة، غير كاملة، ونفيها (لم يسطع) يدل على ذهابها كلية، إذ نفي القدرة القليلة يقتضي عدم وجود أي صورة من صورها.

قال الله تعالى عن يأجوج ومأجوج ومحاولاتهم للخروج من السد المنيع: ﴿ فَمَا ٱسْطَـٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَـٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا ﴾ (الكهف ٩٧). من المعلوم بأن الخروج من السد يحصل إما العلو عليه وتسلقه، أو بفتح نقب فيه –فتحة كبيرة– يستطيع الخروج منه.

أما العلو عليه وتسلقه، فقد نفى الله تعالى القدرة عليه نفياً قاطعاً، إذ نفى كل أنواع القدرة وكل صورها بنفيه لأدنى أنواع القدرة فقال سبحانه: ﴿ فَمَا ٱسْطَـٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ ﴾ فلن يأتي اليوم الذي يعلون فيه على السد. ولم يقل سبحانه: (فما استطاعوا أن يظهروه).

وأما فتح النقب وحفره، فلم ينف المولى عز وجل جميع أنواع القدرة وصورها، وإنما نفى القدرة الكاملة فقال: ﴿ وَمَا ٱسْتَطَـٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا ﴾قال البقاعي: «وزيادة التاء هنا تدل على أن العلو عليه أصعب من نقبه لارتفاعه وصلابته والتحام

بعضه ببعض حتى صار سبيكة واحدة من حديد ونحاس في علو الجبل».

فلم ينف المولى تعالى القدرة الناقصة وذلك لوجود القدرة على حفر النقب، ولكنها قدرة ناقصة، تتحقق بعد مئات السنين، وبعد محاولات متكررة، وهذا الذي ذكره النبي ﷺ إذ روى البخاري ومسلم عن زينب بنت جحش -زوج النبي ﷺ- قالت: «استيقظ النبي ﷺ من نومه، وهو محمّراً وجهه، وهو يقول: لا إله إلا الله، ويلٌ للعرب من شر قد اقترب، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذا، وحلّق -وعقد سفيان تسعين أو مائة- قلت: يا رسول الله! أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: نعم إذا كثر الخبث» فبين النبي ﷺ أنه بعد عشرات بل مئات السنين، في العهد المدني، استطاع يأجوج ومأجود أن يفتحوا ثقباً صغيراً، فهذه قدرة ناقصة، وفي الأثر: «إن يأجوج ومأجوج ليحفرون السد كل يوم، حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس قال الذي عليهم: ارجعوا فستحفرونه غداً، فيعودون إليه كأشد ما كان، حتى إذا بلغت مدتهم، وأراد الله أن يبعثهم على الناس، حفروا حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس، قال الذي عليهم: ارجعوا، فستحفرونه غداً إن شاء الله، ويستثني - أي بقوله إن شاء الله- فيعودون إليه وهو كهيئته حين تركوه، فيحفرونه ويخرجون على الناس ومصداق ذلك قول الله تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتۡ يَأۡجُوجُ وَمَأۡجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٖ يَنسِلُونَ ﴾ (الأنبياء ٩٦)، قال البقاعي في ﴿فُتِحَتۡ﴾ أي بفتح السد». أهـ.

■ يكن ويك

(يكون ويكن) معناهما معروف، ولكن لماذا تحذف النون الأصلية أحياناً، وما البلاغة فيها، قال الله تعالى عن مريم قالت: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴾.

وكذا عندما نفى الله الشرك عن إبراهيم الخليل عليه السلام فقال: ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ وآيات أخرى كثيرة.

حذف النون يدل على نقصان في معنى الكلمة، فإذا سبقها حرف نفي اقتضى ذلك نفي المعنى بكل وجوهه وصوره وأشكاله.

ففي قصة مريم جاءها جبريل عليه السلام، وبلغها بحكم الله تعالى أنها ستلد عيسى عليه السلام بلا أب، فقالت وقد نزل بها الهم والغم ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ۝٢٠ قَالَ كَذَٰلِكِ ﴾. إذ كيف يحدث مثل هذا، ولم يمسسني بشر، ولا يحصل الحمل إلا بالجماع، ولست بذات زوج، ﴿وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴾. والبغي من البِغاء، والبغاء هو الزنى والزنى مراتب: منها ما هو مقدمات له، كنظر الإعجاب، واللمس، وكلام الغزل، وأعلاه هو الجماع كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: «العين تزني وزناها النظر، والأذن تزني وزناها السمع، واليد تزني وزناها البطش، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه».

فنفي أدنى مراتب الزنا يقتضي نفي الجماع. ويقتضي كذلك الطهارة الكاملة، لذا نفت مريم عليها السلام أدنى المراتب بقولها ﴿وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴾ فنفت أقل مراتب الكون من البغاء، كيف ولم أنظر إلى رجل نظرة شهوة ولا كلمت أحداً غزلاً، ولم يمسسني بشر، ولم يخطر في ذهني أن يجامعني أحد من الرجال، فكيف أحمل بمولود، فوافقها جبريل على كل ما ذكرته من طهارتها ونقاوتها

فقال: ﴿ كَذَٰلِكِ ﴾.

وأما في حق إبراهيم عليه السلام فقد قال تعالى ﴿ وَلَمۡ يَكُ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ فنفى عنه أدنى مراتب الشرك ومقدماته، كيف وهو الذي أراد ذبح ابنه الوحيد –بعد بلوغه– تقرباً إلى الله تعالى، وتصفية لقلبه من كل شيء إلا من حبه وعبوديته فسماه الخليل. ﴿ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا ﴾.

المراجع:

١– نظم الدرر للبقاعي (٥٠٥/٤).

٢– نظم الدرر للبقاعي (٥٢٨/٤).

الحذر بين القنوت وسقوط السماء

يروى عن علقمة النحوي أنه سقط عن حماره، فاجتمع عليه الناس، فقال: «مالكم تكأكأتم علي كتكأكئكم على ذي جنة. افرنقعوا» أهـ. فاستعمل ألفاظاً صعبة النطق تحكي الحالة الصعبة التي شعر بها وهو سقوطه أمام الناس.

كان الشعراء والأدباء يتفننون في اختيار الكلمات والتراكيب المناسبة للحالة النفسية التي يعيشها كل منهم. ومن ذلك قول أحدهم واصفاً صعوبة الحال التي انتهى إليها خليله الذي يسمى حرباً، حيث توفي ودفن في مكان ناء، خال من الزوار، فلا قبر قريب، ولا خل وفي عامر، فقال:

وقبر حرب بمكان قفر وليس قرب قبر حرب قبر

قال الله تبارك وتعالى لخليله وصفيه: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَٱسۡجُدۡ لَهُۥ وَسَبِّحۡهُ لَيۡلًا طَوِيلًا﴾ ذلك لأن المرء يأوي في الليل إلى فراشه بعد تعب وكد النهار، فيستغرق في نومه، لكن الله تعالى أمر النبي ﷺ أن يستيقظ من نومه ويقوم لله تعالى، وهذه أصعب الأحوال وأشدها، فالقيام أول الليل قبل التلذذ بالنوم أمر أهون من اقتلاع النائم من نوم عميق. إذ قال الله تعالى: ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا ﴿٤﴾﴾ ثم قال سبحانه: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـٔٗا وَأَقۡوَمُ قِيلًا﴾. فالناشئة هي القيام بعد نوم، فهي أشد على النفس، ولكن أثرها أعظم وأقوم.

فناسب ذلك صعوبة اللفظ في أمره سبحانه للنبي ﷺ ﴿وَسَبِّحۡهُ لَيۡلًا طَوِيلًا﴾ حيث تقارب المخرجين –وهما مخرج الحاء والهاء– يجعل في لفظ الكلمة شيئاً من الثقل، لذا يشدد عليها علماء التجويد في إظهار حروفها.

كذا في قوله تعالى عن نفسه: ﴿وَيُمۡسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦٓ﴾ (سورة الحج) فعند التلفظ بـ ﴿ٱلسَّمَآءَ أَن﴾ و ﴿تَقَعَ عَلَى﴾ تأخذ نوعاً من الحذر لاتقاء الهمزتين وكذا (العينين) والتي سبقتها (القاف) والتي تشير إلى أخذ الحذر خشية سقوط السماء على الأرض، فالذي حفظها هو الله تعالى، فلو لم يمسكها سبحانه وعاقب الناس على معاصيهم، وشركهم، لوقعت على رؤوسكم فاحذروا.

(ما) المعظمة بين رحمة النبي ﷺ وغضب المؤمنين

من خصائص اللغة العربية أنه توجد مناسبة بين اللفظ والمعنى فلفظ الحرف والكلمة يدل على معناها.

قال أبو الفتح بن جني -أحد علماء اللغة: «لقد مكثت برهة يَرِدُ عليَّ اللفظ لا أعلم موضوعه، وآخذ معناه من قوة لفظه ومناسبة تلك الحروف لذلك المعنى، ثم أكشف فأجده كما فهمته أو قريباً منه».

فما هي دلالة حرف (ما) في كتاب الله تعالى والتي يقال عنها بأنها زائدة وليست كذلك؟ قال الله تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ﴾ فهل (ما) في قوله تعالى ﴿ فَبِمَا ﴾ زائدة، وإذا كانت ليست كذلك، فما هي دلالتها البلاغية؟

أ- الميم حرف شفهي، يجمع الناطق به شفتيه، فوضعته العرب عَلَماً على الجمع لاجتماع الشفتين فيقال للجمع المخاطب (أنتم) وللضمير (هم)، ويقال لمن جمع الشيء (لَمّه)، ويقال للقمر إذا كمل واجتمع نوره (بدر التم) ومنه (التوأم) للولدين المجتمعين في بطن واحد، ومنه (الأم) للأصل الذي يتفرع منه وهي الجامع لها. ومنه (الإمام) الذي يجتمع عليه المقتدون به، ومنه (ضَمّ) الشيء إذا جمعه، و(هَمّ) الإنسان عند اجتماع إرادته وعزائمه في قلبه، ومنه الصديق (الحميم)[١] الملاصق الذي اجتمع قلبه على قلب صاحبه.

ب- حرف (الألف) عند التلفظ به يمتد به الصوت ما لم يقطعه ضيق النفس، فآذن امتداد لفظه بامتداد معناه[٢] فهو يفيد الإطلاق والامتداد والاستمرار. قال ابن جني عن الألف: «إنها إذا وقعت طرفاً... دل ذلك على قوتها»[٣]

١- مختصر من جلاء الأفهام لابن القيم (٧٤-٧٨).
٢- بدائع الفوائد (٩٦/١) لابن القيم.
٣ - الخصائص (٣١٨/١).

ج- في قول الله تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ﴾: أي قد جمعت فيك رحمة عظيمة حانية، وهي رحمة المسامحة والعفو التي تتسع لكل الهفوات، وهذه الرحمة موهوبة مني لك تتحمل بها كل مخالفة من أمتك وأتباعك[١].. ورحمة الهداية والدلالة والإرشاد إلى طريق الفوز والنجاة في الدارين، انطلقت منك بفضلي، واستمر أثرها بلا انقطاع إلى أن يدخل المؤمنون الجنة وهي باقية معهم، ودخول الكافرين النار. قال الله تعالى لصفيه ﷺ: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾. وقال النبي ﷺ: «إنما أنا رحمة مهداة».

قال الرافعي: «فيها تصوير لين النبي ﷺ لقومه، وأن ذلك رحمة من الله، فجاء هذا المد في (ما) وصفاً لفظياً يؤكد معنى اللين ويفخمه، وفوق ذلك فإن لهجة النطق به تشعر بانعطاف وعناية لا يبتدأ هذا المعنى بأحسن منهما في بلاغة السياق، ثم كان الفصل بين الباء الجارة ومجرورها -وهو لفظ الرحمة- مما يلفت النفس إلى تدبر المعنى، وينبه الفكر على قيمة الرحمة فيه»[٢].

■ ﴿ مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا ﴾

ذكر الله تعالى ذلك في حق قوم نوح، إذ لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً، يدعوهم إلى الله تعالى، وهم يردون عليه أشد الرد وأقبحه، ويسخرون منه ﴿ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ﴾، إلى أن عظمت ذنوبهم، وتكالبت عليهم خطاياهم مدة السنوات المذكورة، فقال تعالى: ﴿ مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ ﴾ أي بلغت خطاياهم مبلغاً الله أعلم به.

قال الألوسي في ﴿ مِّمَّا ﴾: «لتعظيم الخطايا في كونها من كبائر ما ينهى عنه»[٣].

١- الشعراوي (١٨٣٦/٣).
٢- إعجاز القرآن (٢٣١).
٣- روح المعاني (٩٨/٢٩).

■ ﴿وَٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمۡ يَغۡفِرُونَ﴾

وردت هذه الآية ضمن مجموعة من الآيات وصف الله تعالى بها المؤمنين ممتدحاً لهم، فقال في هذه ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُواْ﴾: ﴿مَا﴾ هنا للدلالة على كمال الغضب أي إذا امتلئوا غضباً وغيظاً فإنهم يغفرون ويتجاوزون.

كحال أبي بكر رضي الله عنه عندما تكلم مسطح رضي الله عنه في ابنته عائشة -رضي الله عنها-، واتهمها في حادثة الإفك، امتلأ أبو بكر غيظاً وغضباً عليه، وكان قبلها ينفق عليه ويغدق، فتوعده بقطع النفقة عنه، فأنزل الله تعالى قوله: ﴿وَلَا يَأۡتَلِ أُوْلُواْ ٱلۡفَضۡلِ مِنكُمۡ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤۡتُوٓاْ أُوْلِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلۡيَعۡفُواْ وَلۡيَصۡفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ قال أبو بكر: بلى، أحب أن يغفر الله لي، فأجرى عليه النفقة ثانية.

وكقول بشار بن برد يمدح قبيلته:

إذا ما غضبنا غضبة مضرية　　　هتكنا حجاب الشمس أو قطرت دماً

أي إذا امتلأنا غضباً.

المراجع:

١- جلاء الأفهام- لابن القيم (٧٤-٧٨).

٢- بدائع الفوائد- لابن القيم (٩٦/١).

٣- الخصائص- لابن جني (٣١٨/١).

٤- تفسير الشعراوي (١٨٣٦/٣).

٥- إعجاز القرآن للرافعي (٢٣١).

٦- روح المعاني للألوسي (٩٨/٢٩).

أسرار جمالية قرآنية

أن الزمنية بين تردد موسى ووَله يعقوب

قال ابن الأثير: جرت بيني وبين رجل من النحويين مفاوضة في قول الله تعالى عن موسى عليه السلام بعد قتله للفرعوني: ﴿ فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ ۚ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَا مُوسَىٰ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ ﴾

فقال: إن ﴿ أَنْ ﴾ الأولى زائدة في قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ ﴾.

ولو حذفت فقيل (فلما أراد أن يبطش) لكان المعنى سواء، ألا ترى إلى قوله تعالى ﴿ فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ ﴾ وقد اتفق النحاة على أنّ ﴿ أَن ﴾ الواردة بعد ﴿ فَلَمَّا ﴾ وقبل الفعل زائدة.

فقلت له: النحاة لا فُتيا لهم في مواقع الفصاحة والبلاغة، ولا عندهم معرفة بأسرارهما، من حيث إنهم نحاة، ولا شك أنهم وجدوا ﴿ أَن ﴾ ترد بعد ﴿ فَلَمَّا ﴾ وقبل الفعل في القرآن الكريم وفي كلام فصحاء العرب فظنوا أن المعنى بوجودها كالمعنى إذا أسقطت، فقالوا: هذه زائدة.

وليس الأمر كذلك، بل إذا وردت ﴿ فَلَمَّا ﴾ وورد الفعل بعدها بإسقاط ﴿ أَنْ ﴾ دل ذلك على الفور، وإذا لم تسقط لم يدلنا ذلك على أن الفعل كان على الفور، وإنما كان فيه تراخٍ وإبطاء، ففي الآية دليل على أن موسى عليه السلام لم تكن مسارعته إلى قتل الثاني كما كانت مسارعته إلى قتل الأول، بل كان عنده إبطاء في بسط يده إليه، فعبر القرآن عن ذلك في قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ ﴾.

الوجه الآخر: أن هذه اللفظة لو كانت زائدة لكان ذلك قدحاً في كلام الله

تعالى، وذلك أنه يكون قد نطق بزيادة في كلامه لا حاجة إليها، والمعنى يتم بدونها، وحينئذٍ لا يكون كلامه معجزاً، إذ من شرط الإعجاز عدم التطويل الذي لا حاجة إليه، وإن التطويل عيب في الكلام، فكيف يكون ما هو عيب في الكلام من باب الإعجاز؟ هذا محالة.

وأما قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلۡبَشِيرُ أَلۡقَىٰهُ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ﴾ فإنه إذا نظر في قصة يوسف عليه السلام مع إخوته منذ أن ألقوه في الجب وإلى أن جاء البشير إلى أبيه عليه السلام وجد أنه كان ثم إبطاء بعيد، وقد اختلف المفسرون في طول تلك المدة، ولو لم يكن ثم مدة بعيدة وأمدّ متطاول لما جيء بـ ﴿أَن﴾ بعد ﴿فَلَمَّآ﴾ وقبل الفعل، بل كانت تكون الآية ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلۡبَشِيرُ أَلۡقَىٰهُ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ﴾. وهذه دقائق ورموز لا تؤخذ من النحاة، لأنها ليست من شأنهم[١].

وتوضيحاً لما قاله ابن الأثير أقول: في قول الله تعالى عن موسى عليه السلام ﴿فَلَمَّآ أَنۡ أَرَادَ أَن يَبۡطِشَ بِٱلَّذِي هُوَ عَدُوّٞ لَّهُمَا﴾:

ذلك أن موسى بالأمس رأى هذا الإسرائيلي يتشاجر مع فرعوني (من طبقة ملوك مصر) وبنو إسرائيل مستضعفون مستخدمون لديهم، فتبادر إلى ذهن موسى أن الإسرائيلي مظلوم، وإن المعتدي هو الفرعوني، كما هو معروف عادة، فنصره موسى وضرب الفرعوني الذي سقط صريعاً، ولم يقصد موسى قتله، فقال: ﴿هَٰذَا مِنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّهُۥ عَدُوّٞ مُّضِلّٞ مُّبِينٞ ١٥ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي فَٱغۡفِرۡ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ١٦ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ فَلَنۡ أَكُونَ ظَهِيرٗا لِّلۡمُجۡرِمِينَ﴾.

فوصل الخبر إلى الفراعنة بمقتل الفرعوني، ولم يعلموا من قتله. فأصبح موسى في المدينة خائفاً يترقب، كثير الالتفات برقبته يتوقع المكروه، فإذا

١- البرهان (٤/٢٢٧).

الإسرائيلي الذي طلب نصرته بالأمس يستصرخه مرة أخرى ويستنجده على فرعوني آخر حصلت بينهما مشاجرة فقال موسى للإسرائيلي: ﴿ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ﴾ ظاهر الغواية كثير الشر، وهذا بين واضح.

فتردد موسى في نصرة الإسرائيلي إذ ربما يكون هو الظالم، ولكن بعد هذا التردد توصل إلى غلبة الظن أن الإسرائيلي مظلوم، إذ يبعد أن يكون ممن هو من طبقة الخدم يعتدي على من هو من طبقة الملوك –الفرعوني– فذهب موسى لنجدته.

فمنذ بداية الاستغاثة إلى إرادة موسى البطش بالفرعوني، حصل نوع من التردد في فترة من الوقت فهذا الفاصل من الوقت، تم التعبير عنه بفاصل من الأحرف ﴿أن﴾.

ويظهر ذلك جلياً من قراءة السكت على الساكن ما قبل الهمز ﴿ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا ﴾.

■ ﴿ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا ﴾

لقد فرق الأخوة بين يوسف وأبيه فترة من الزمن إلى أن قال لهم أبوهم بعدما فقد بنيامين: ﴿ يَٰبَنِىَّ ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾.

ذهب قسم من الإخوة إلى مصر للبحث عن يوسف ومعرفة إمكانية استرجاع بنيامين، وبقي قسم آخر في الصحراء في البدو مع أبيهم يعقوب عليه السلام.

أما القسم الذي ذهب إلى مصر فدخلوا على عزيز مصر وقالوا له ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ

يَجۡزِي ٱلۡمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ قَالَ هَلۡ عَلِمۡتُم مَّا فَعَلۡتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذۡ أَنتُمۡ جَٰهِلُونَ
﴿٨٩﴾ قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِيۖ قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآۖ
إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ
ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ
يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾ ٱذۡهَبُواْ بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلۡقُوهُ عَلَىٰ
وَجۡهِ أَبِي يَأۡتِ بَصِيرٗا وَأۡتُونِي بِأَهۡلِكُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلۡعِيرُ﴾
وخرجت من مصر. ﴿قَالَ أَبُوهُمۡ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَۖ لَوۡلَآ أَن تُفَنِّدُونِ
﴿٩٤﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَٰلِكَ ٱلۡقَدِيمِ﴾.

فيعقوب عليه السلام، يشعر أن يوسف قريب منه، لقد وجد رائحته، فجاشت عاطفته، وتحرك وجدانه تجاه يوسف، وازداد شوقه للقائه، فاستعجل لقاءه، ولكن الوقت يمشى بطيئاً، والدقائق تمر وكأنها ساعات، والساعة تمر عليه وكأنها يوم كامل، إلى أن جاء البشير فألقى القميص على وجه يعقوب عليه السلام، فارتد بصيراً، فكأنه استبطأه، وكأن وقتاً طويلاً مر عليه منذ أن وجد رائحته إلى أن جاءه البشير، هذا فاصل من الوقت تم توضيحه بفاصل من الأحرف ﴿أن﴾: ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلۡبَشِيرُ أَلۡقَىٰهُ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ فَٱرۡتَدَّ بَصِيرٗا﴾

قال الزركشي: «لأنه لما كان مجيء البشير إلى يعقوب عليه السلام بعد طول الحزن، وتباعد المدة، ناسب ذلك زيادة ﴿أن﴾ لما في مقتضى وصفها من التراخي»[١] أهـ.

قال الرافعي: «والمراد بها تصوير الفصل الذي كان بين قيام البشير بقميص

١– نظم الدرر للبقاعي (٣٥٢/٢)

يوسف وبين مجيئه، لبعد ما كان بين يوسف وأبيه عليهما السلام، وأن ذلك كأنه كان منتظراً بقلق واضطراب، تؤكدهما وتصف الطرب لمقدمه واستقراره غُنة هذه النون في الكلمة الفاصلة، وهي ﴿أَن﴾ في قوله: ﴿أَن جَآءَ﴾».

المراجع:

١- البرهان للزركشي (٢٢٧/٤).

٢- نظم الدرر للبقاعي (٣٥٢/١٢).

٣- الكشاف للزمخشري (١١٠/٣).

أسرار جمالية قرآنية

توحيد الضمير بين متابعة هارون وحب أبي بكر

■ ﴿ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾

لماذا وردت كلمة الرسول مفردة على لسان موسى في هذه الآية ﴿ رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾؟ بالرغم من أن المقصود بها: موسى وهارون كما في آية طه ﴿ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ﴾.

ذلك إشارة إلى تعاضدهما، وإتحادهما كالنفس الواحدة، واتفاقهما على شريعة واحدة فرسالتنا واحدة، ومطالبنا واحدة، لا نختلف في ذلك قدر أنملة، والمتكلم -أي موسى- هو الأصل، والآخر -هارون- تابع له متابعة تامة، فنحن بمثابة رجل واحد.

■ ﴿ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ ﴾

نزلت هذه الآية في شأن هجرة النبي ﷺ إلى المدينة بصحبة أبي بكر رضي الله عنه، عندما لجئا إلى غار ثور، فاختبئا، وكان أبو بكر مهموماً على النبي ﷺ خشية أن يطلعوا عليه، فكان النبي ﷺ هو المتبوع المطاع، وأبو بكر محب تابع مطيع، معروف بكمال ملازمته ومصاحبته للنبي ﷺ كما قال النبي ﷺ: «إن من أمن الناس عليّ في صحبته وماله أبو بكر، ولو كنت متخذاً خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً» (رواه البخاري).

وعندما اشتكى إليه أبو بكر رضي الله عنه من بعض الصحابة، غضب النبي ﷺ وقال مخاطباً كبار الصحابة وصغارهم: «لقد جئتكم بها فقلتم كذبت، وقال أبو بكر صدقت، وواساني بنفسه وماله، فهل أنتم تاركوا لي صاحبي». (رواه البخاري).

فأثبت له صحبة خاصة منفردة تختلف عن الصحبة العامة، لذا كانت لأبي بكر مواقف لم يقفها غيره من الصحابة، كما في العهد المكي وصلح الحديبية، وفي غزوة بدر، وعند وفاة النبي ﷺ، واختصاصه بصحبة النبي ﷺ في الهجرة،

وفي التعامل مع مانعي الزكاة والمرتدين، مع إرساله لجيش أسامة الذي عقد لواءه النبي ﷺ لأسامة.

فأبو بكر وصف بالصحبة المطلقة الكاملة، ووصفها في أخص الأحوال التي يفارق الصاحب فيها صاحبه، وهو حال شدة الخوف، فكان هذا دليلاً على أنه صاحبه وقت النصر والتأييد، فإن من كان صاحبه في حال الخوف الشديد، فلأن يكون صاحبه في حال حصول النصر والتأييد أولى وأحرى، فلم يحتج أن يذكر الضمير الدال عليه في هذه الحال لدلالة الكلام والحال عليها، فإذا حصل للمتبوع وهو النبي ﷺ في هذه الحال سكينة وتأييد، كان ذلك للتابع أيضاً -أبي بكر- بحكم الحال، فإنه صاحب تابع ملازم فوحد الضمير في قوله تعالى: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٖ لَّمۡ تَرَوۡهَا﴾ ولم يذكر أبو بكر، ذلك لكمال ملازمته ومصاحبته للنبي ﷺ التي توجب مشاركته، مما يقذف في القلب أنه محال أن ينزل ذلك على أحدهما دون الآخر لتلازمهما، فلما كان لا يحصل ذلك إلا مع الآخر وحّد الضمير، وأعاده إلى الرسول ﷺ فإنه هو المقصود، والصاحب تابع له[1].

■ ﴿فَلَا يُخۡرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلۡجَنَّةِ فَتَشۡقَىٰٓ﴾

خاطب الله تعالى آدم محذراً إياه من متابعة الشيطان الذي يسعى جاهداً لإخراجه وحواء من الجنة، فقال تعالى بعد تثنية الضمير: ﴿فَلَا يُخۡرِجَنَّكُمَا﴾ قال: ﴿فَتَشۡقَىٰٓ﴾ ولم يقل (فتشقيا) ذلك لأن الزوجة -حواء- لشدة حبها لزوجها وتعلقها به -آدم- ومتابعتها وملازمتها له، بل كأنها وآدم شخص واحد فإذا فرح فرحت معه، وإذا أصابه الهم شعرت بالهم معه، وإذا مرض مرضت معه وإذا شقي شقت معه، فوحد الضمير.

المراجع:

١- منهاج السنة النبوية لشيخ الإسلام ابن تيمية (٨/٤٨٨-٤٩٣).
٢- نظم الدرر للبقاعي (٥/٢٠٥).

١- منهاج السنة لابن تيمية (٨/٤٨٨-٤٩٣).

الفعل بين نسيان النعمة واستحضار النقمة

ذكر الله تعالى من أحوال الفراعنة مع موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ أنهم ﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ﴾ (سورة الأعراف) فالملاحظ من الآية المذكورة ما يلي:

١- عندما ذكر المولى تعالى الحسنة قال ﴿فَإِذَا﴾ ولما ذكر السيئة قال ﴿وَإِن﴾.

٢- عرّف الحسنة فقال ﴿ٱلْحَسَنَةُ﴾ ونكّر السيئة فقال ﴿سَيِّئَةٌ﴾ بدون لام التعريف.

٣- مع الحسنة أتى الفعل الماضي ﴿قَالُوا۟﴾ ومع السيئة أتى الفعل المضارع ﴿يَطَّيَّرُوا۟﴾.

توضيحه فيما يلي:

١- ﴿فَإِذَا﴾ تفترق عن ﴿وَإِن﴾ من أنها تفيد القطع في حال دخولها على الجملة، وتدل على كثرة وقوعها وتكرارها، أي جملة الشرط لا بد وأن تقع، كما قال تعالى ﴿وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا﴾ فهذا أمر مقطوع بوقوعه وكثير الحدوث. بينما (إن) تدل على حدث نادر الوقوع، قال تعالى ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ فالمصائب نادرة الحدوث مقابل النعم التي يتقلب فيها المرء في حياته.

٢- تعريف الحسنة يدل على عظمها. فكل الناس يراها لأنها ظاهرة وعظيمة لذلك فهي معروفة، ثم هي معرفة تعريف الجنس، أي حسنات كثيرة، بينما ﴿سَيِّئَةٌ﴾ منكرة غير معرفة لصغرها فهي مصيبة صغيرة أصيبوا بها.

٣- مجيء الفعل الماضي ﴿قَالُواْ﴾ مع الحسنة، ذلك لأن طبيعة الإنسان نسيان النعمة والمنافع التي يتلقاها من غيره إلا من رَحِم الله تعالى، كما قال تعالى ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٞ﴾ وقال سبحانه: ﴿فَإِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ كَفُورٞ﴾ (الشورى : ٤٨) وقال: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومٗا جَهُولٗا﴾ (الأحزاب : ٧٢) فهي في طي النسيان ومن حكم الماضي، ولو كانت المنفعة حديثة لم تبل. بينما الضرر لا ينسى، ولو مرت عليه مدة طويلة وسنون مديدة، فيكون حاضراً في ذهن المتضرر، فلو أخطأت في حق امرئ قد أسبغت عليه من النعم والمنافع، تجده يستحضر خطأك ولا يستحضر منفعتك له، فالمنفعة في خبر كان بينما الضرر حاضر في ذهنه.

ففي الآية المذكورة بيّن الله تعالى أخلاق الفراعنة أنهم إذا جاءت النعم العظيمة المتوالية والتي لا تنقطع نسوها وأعرضوا عن شكرها، بينما إن أصابتهم بعض الأضرار أو المصائب الصغيرة -نادرة الحدوث- لن ينسوها، ودائماً يعيرون موسى بها، وأنها من شؤمه.

وفي الآية إشارة بلاغية أخرى في قوله تعالى: ﴿يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ﴾ ولم يقل المولى (وبمن معه) ذلك أن أصحاب موسى هم تبع له، ولا يجوز أن ينفصلوا عنه، كما أنهم تبع له في الإعراب. فلا داعي للفصل بينه وبين أتباعه بـ (الياء).

المراجع:

١- نظم الدرر (٣/٨٩).

الواو بين المفاجأة والاستغاثة

سأل المأمون يوماً يحيى بن المبارك عن شيء فقال يحيى: لا وجعلني الله فداك يا أمير المؤمنين. فقال المأمون: لله درك، ما وضعت (واو) قط موضعا أحسن من موضعها في لفظك هذا. ووصله وحمله.

فتأمل لو حذفت الواو كيف سيتغير المعنى ويصبح «لا جعلني الله فداك» وانظر إلى بلاغة وجود الواو وحذفها في كتاب الله تعالى.

■ (فتحت، وفتحت)

قال الله تعالى: ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا ﴾ وقال سبحانه عن أهل الجنة: ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا ﴾ فحذفت الواو عن الكفار، وذكرت في حق المؤمنين!

إن الكفار يوم القيامة يُدفعون ويساقون سوقاً إلى نار جهنم، فإذا انتهوا إليها في ظلمة حالكة وأبوابها مغلقة فتحت في وجوههم. ففاجأهم وبغتهم لهيبها وشهيقها وفورانها وعذابها وما أعد الله -عز وجل- لهم فيها، فهم بمنزلة من وقف على باب لا يدري بما يفتح له من أنواع الشر، إلا أنه متوقع منه شراً عظيماً ففتح في وجهه، وفاجأه ما كان يتوقعه وما لا يتوقعه، فقال سبحانه: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا ﴾.

وهذا بخلاف أهل الجنة، فإنهم لما كانوا مساقين إلى دار الكرامة، وهي مأدبة الله تعالى، وكان من تمام إكرام الضيف المدعو الزائر أن يفتح له باب الدار،

فيجيء فيلقاه مفتوحاً. فلا يلحقه ألم الانتظار. فقال سبحانه: ﴿ وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا ﴾ أي: وقد فتحت أبوابها، كما قال تعالى: ﴿ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلۡأَبۡوَٰبُ ﴾. إكراماً لهم بما يخرج إليهم من رائحتها وعبيرها، ويرون من زهرتها وبهجتها، ليكون لهم سائقاً ثانياً إلى ما لم يروا مثله ولا رأوا عنه ثانياً.

■ (قال وقال)

قال الله تعالى: ﴿ أَلۡقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٖ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٖ لِّلۡخَيۡرِ مُعۡتَدٖ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلۡقِيَاهُ فِي ٱلۡعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ ۞ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطۡغَيۡتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٖ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخۡتَصِمُواْ لَدَيَّ وَقَدۡ قَدَّمۡتُ إِلَيۡكُم بِٱلۡوَعِيدِ ﴾.

لم يقل الله تعالى عن القرين (وقال قرينه) أو (فقال) ولا عن نفسه (وقال) أو (فقال: لا تختصموا) وإنما بحذف أدوات العطف.

لما صدر الأمر الإلهي الذي لا مرد له ولا مبدل لكلماته بالنتيجة النهائية لمصير العبد الكافر (فَأَلۡقِيَاهُ فِي ٱلۡعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ) فأعلنت النتيجة بعد انتظار في يوم طوله خمسون ألف سنة، هنا صرخ الكافر وصاح دون تمهل بعد الإعلان ﴿ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطۡغَيۡتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٖ ﴾ فأتاه الرد سريعاً دون تمهل لقطع الرجاء والأمل ﴿ قَالَ لَا تَخۡتَصِمُواْ لَدَيَّ وَقَدۡ قَدَّمۡتُ إِلَيۡكُم بِٱلۡوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ ٱلۡقَوۡلُ لَدَيَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ﴾.

المراجع:

١- بدائع التفسير- لابن القيم (٤/٧٣-٧٣).

٢- نظم الدرر- للبقاعي (٦/٤٧٧-٤٧٩).

العلو في الذل

قال الله تعالى ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾.

فالعلو يناسب العزة، ولكن أين مناسبة العلو للذل إذا قال تعالى: ﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ ولم يقل (أذلة للمؤمنين)؟

إن رباط الأخوة في الله تعالى من أوثق الروابط، بل لا انفصال لها في الدنيا ولا في الآخرة كما قال تعالى: ﴿ ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۭ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾. لذا حث النبي ﷺ على توثيقها فقال: «ما تحاب اثنان في الله تعالى إلا كان أفضلهما أشدهما حباً لصاحبه» (رواه البخاري في الأدب المفرد وصححه ابن حبان).

لذا كلما بذل الأخ لأخيه في الله كلما ازداد قرباً من الله تعالى سواء كان البذل من ماله أو نفسه لقول الله تعالى في الحديث القدسي «حقت محبتي للمتباذلين فيّ» (رواه أحمد).

فمن سبق أخاه فتنازل له وبذل نفسه ليتصافى معه، يزيل ما حال بينهما من كدر كان أرفع وأفضل عند الله تعالى، بل هو أولى بالله من أخيه لقول النبي ﷺ: «لا يحل لأحد أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليال، يلتقيان، فيصد هذا، ويصد هذا، وخيرهما الذي يبدأ بالسلام» (رواه البخاري). فلئلا يشعر أنه قد ذل نفسه لأخيه فأصبح في مرتبة أدنى، بل هو أرفع منه لأنه تواضع لله تعالى فرفعه الله عز وجل قال النبي ﷺ: «ما تواضع أحد لله إلا رفعه الله» (رواه مسلم).

فقال سبحانه: ﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ فهذا في حال تَذَلُّله لأخيه يصبح في مرتبة أعلى منه لأنه بذل نفسه لله تعالى فرفعه.

قال الشعراوي: «ساعة يكون في ذلة لأخيه المؤمن فهذا يرفع من قدره» ثم هذا الذل فيه حنان وعطف على أخيه المسلم.

قال ابن القيم «لما كان الذل منهم ذل رحمة وعطف وشفقة وإخبات عدّاه بأداة (على) تضميناً لمعاني هذه الأفعال، فإنه لم يرد به ذل الهوان الذي صاحبه ذليل... قال الله تعالى في الآية الأخرى: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾».

قال البقاعي: «لما كان هذا الذل صادراً عن الرفق ولين الجانب لا الهوان، كان في الحقيقة عزاً، فأشار إليه بحرف الاستعلاء مضمناً له معنى الشفقة. فقال: ﴿عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ مبيناً أن تواضعهم عن علو منصب وشرف». أهـ.

المراجع:

١- بدائع التفسير- لابن القيم (١١٣/٢-١١٦).

٢- نظم الدرر للبقاعي (٤٨٢/٢-٤٨٣).

٣- تفسير الشعراوي.

الحب ينطق والحياء يسكت

■ ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴾

هكذا خاطب الله تعالى موسى عليه السلام والجواب ﴿ هِىَ عَصَايَ ﴾ لكن موسى عليه السلام استطرد وأطنب في الجواب وذكر أموراً لم يُسأل عنها فقال: ﴿ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى ﴾ ثم توقف ولم يكمل فقال: ﴿ وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴾. فلماذا لم يستطرد في فوائد العصا؟!

في ظلمة الليل حيث البرودة شديدة رأى موسى نوراً يأخذ باللب فشعر بالأنس والراحة تجاهه فقال: ﴿ ءَانَسْتُ نَارًا ﴾ فعندما وصل إليه سمع صوتاً جميلاً جليلاً يخاطبه: ﴿ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى ﴾ فتحركت مشاعر موسى، وفاض قلبه بمشاعر الحب، وعلم أن الذي يخاطبه هو الله تعالى المعبود الذي تفطرت القلوب بمحبته. فخاطبه سبحانه متلطفاً معه ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴾ فأجاب مسرعاً لما أذن له بالكلام معه فقال: ﴿ هِىَ عَصَايَ ﴾ ثم استطرد استئناساً بلذيذ المخاطبة ونسي نفسه فقال: ﴿ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى ﴾ ثم انتبه وأفاق واستحيا لهذا الاستطراد. فقال باستحياء وتلطف ﴿ وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴾ اذكرها لك ربي إن شئت سبحانك.

وكما قيل: الحب ينطق والحياء يسكت.

الفهـــرس

أسرار جمالية قرآنية